شنغهاي

المدينة التي تنظر إلى الغد

> شنغهاي- دومينيك ميرل

بينما يركز العالم الضوء على بكين والألعاب الأولمبية عام 2008، تواصل شنغهاي الإنفجار الاقتصادي في القرن الحادي والعشرين بوتيرة مذهلة. وإذا كانت هناك أية مدينة في العالم تستطيع أن تأخذ حصتها من "التفاحة الكبيرة" فهي هذه المدينة. وهذا القول يأتي من مواطن نيويوركي.

يعيش هنا حوالي 17 مليون شخص، إلى جانب 8 ملايين دراجة، و6 أو7 مليون سيارة. وفي آخر إحصاء، حوالي 5,000 مبنى شاهق مكوّن من 20 طابقا أو أكثر. ولكن إنس الأرقام، ولا تهتم بالحساب، لأنها تتغير طوال الوقت. إلى جانب ذلك، بدأ الصينيون يقربون الأرقام إلى أقرب رقم مليوني. إحدى القواعد الأساسية في الكتابة عن الرحلات هي أن القراء ينبغي أن يكونوا قادرين على العثور على ما تصف عندما يزورون ذلك المكان. ولكن هذا أيضا هباء، وذلك بسبب الهدم والبناء الذي يجري بلمح البصر تقريبا في شنغهاي. وكتب أدلة السفر يعفو عليها الزمن بالسرعة التي يجف الحبر عنها تقريباً. "لدينا مقولة أن أنظر إلى ثقافة عمرها 5,000 سنة، زر شيان وتمثيلها الطينية (التيراكوتا)"، قال لنا المرشد السياحي بينغ. وأضاف "ولزيارة ثقافة عمرها 2,000 زوروا المدينة المحرمة في بكين والجدار العظيم. ولكن إذا كنت تريد أن ترى الغد، فتعال إلى شانغهاي."

نزلت مجموعتنا في بورتمان ريتز كارلتون بورتمان الواقع على شارع نانينغ المزدحم، والأكثر شهرة بين شوارع التسوّق في جميع أنحاء الصين. لقد نزلت في هذا المكان منذ 8 سنوات عندما كانت مائدة الإفطار تحتوي أطباقا منها نحو 80 صينية و20 غربية. وأما اليوم فإن هذه الأرقام مقلوبة.

مشيت من الفندق، وعبر شارع نانينغ، إلى نهر هوانغبو. وكأنني، عمليا، أتمشى في مانهاتن باتجاه نهر هدسون. تصطف ناطحات السحاب على جانبي الشارع. والمرة الوحيدة التي لمحت فيها الماضي هي عندما تطلعت في أحد الأزقة الصغيرة.

ولكن هناك بضعة أماكن يمكنك أن تعاود فيها زيارة مدينة المشرق الغامضة مرة أخرى. ومن ذلك جزء صغير يدعى "شانغهاي القديمة"، وهو إسم مناسب، حيث يوجد فيها عدد من المباني والمعابد التي تمت المحافظة عليها. ولا أحد يعيش هناك فعلا؛ وهي ليست إلا مجموعة من المتاجر والمطاعم، وإن مرأى مقهى (ستاربك) يبطل سحر المكان.

المكان الآخر هو، في الحقيقة، ستوديو دائم للفيلم في منطقة سونغجيانغ، حيث توجد نماذج لمشاهد شوارع شانغهاي القديمة وقد صوّرت بدقة. ومن الواضح أن لا أحد يعيش هناك أيضاً.

مدينة زوياياو النهرية

River town of Zhujiajiao

الكاتب على طوافة في نهر اليانغسي قرب شنغهاي

Authour rafting on Yangtze River near Shanghai

شنغهاي في الليل

Shanghai at night

حرفية تطرّز
Needlework lady

فنان يلوّن منتوجاته اليدوية
Artist at work decorating his hand-carved objects

بخلاف ذلك، يمكنكم أن تتجولوا مسافة قصيرة بالسيارة إلى إحدى مدن الأنهار التاريخية التي لا تزال تتمسك بعناد بجذورها بدلا من الانضمام إلى مسار شنغهاي السريع إلى المستقبل. زرنا صباح اليوم التالي، زهوجياجياو، وهي قرية تأسست قبل 1,700 سنة خلال حكم سلالة المينغ. وهناك ناس يعيشون بالفعل فيها، وهم حوالي 4,000 نسمة. أمضينا فترة العصر السارة نتمشى في مجموعة من 10 شوارع وعلى متن واحد من القوارب الصغيرة الذي يمر خلال الأنهار الضيقة التي تخترق القرية، وتحت الجسور الحجرية ذات الأقواس الجميلة. وكثير من المتاجر تحمل علامات بالصينية فقط، ما يدل على أن هذه القرية هي أكثر من مجرد وقفة سياحية.

ولكن كان ذلك هو الماضي. ولكننا تحولنا إلى الحاضر، فعدنا إلى شنغهاي، وهي المدينة التي تبدو أنها تتغير أمام عيونكم. توجهنا نحو الـ(بند)، ربما كان رمزا لشانغهاي، وكثيرا ما يشير إليه الصينيون باعتباره "أفضل شارع في الشرق". وفي الواقع، فإن البند ليس شارعا على الإطلاق، ولكن منطقة، والجذب الرئيسي فيها هو ممر إسمنتي مرتفع يلتف على طول الضفة الغربية لنهر هوانغبو حتى التقائه مع نهر اليانغتسي. ومثل البندقية، فإن شانغهاي تطمس شيئا فشيئا، ولذا تم رفع شارع النهر تلافيا للفيضان.

ويبدو أن كل شيء يحدث في البند. ومن المحتمل أن تجد في الصباح الباكر مجموعات من الشباب وكبار السن يمارسون رقص الفالز على الموسيقى الغربية- نعم، رقص الفالز، فهي الرياضة المفضلة لتوليد النشاط لدى كثير من كبار السن في عموم الصين. وفي المساء، يطغى على الشارع الأزواج من جميع الأعمار وهم يتمشون.

الشارع الرئيسي الذي يمر على طول البند هو حلقة وصل هامة لشبكة الطرق الرئيسية الجديدة في المدينة ويؤطره من الجانب الآخر خط من المباني الشاهقة على النمط الأوروبي. وهذه القطعة من شنغهاي، على الرغم من أنها تبدو أكثر قربا إلى أوروبا العالم القديم منها إلى الشرق، فإنها ظلت ثابتة نسبياً خلال الطفرة الحالية. وكثيرا ما يقال، عندما كنا هناك أن 20 من جميع رافعات البناء في العالم تستخدم في شنغهاي.

حي بودونغ، أو ما يسمى بـ"مدينة المستقبل"، على الرغم من أنه يقع ضمن شنغهاي، فهو على الجانب الآخر من نهر هوانغبو. وقبل عقد أو نحو ذلك، كانت هذه اراضي خالية؛ وهي اليوم تعرض مجموعة من المباني المستقبليه الباهرة، بعضها على شكل الإبر وأخرى مثل الكرة، ما يعطيها مظهر المهرجان. وهذا مناسب لأن شنغهاي ستكون موقع إكسبو 2010.

وفي صباح اليوم التالي سرت نحو منطقة البند مرة أخرى، وتوجهت إلى شارع جانبي ودخلت إلى محل حلاق الحي الصغير جدا وحيث تكاد لا تجد من يتحدث الإنكليزية. إنني أستخدم لغة الإشارة عند الحلاقة، وأنتهي بالحصول على تدليك من الخصر إلى الأعلى وعلاج مصغّر بوخز الإبر ، بما فيها الإبر التي تدس في أذني، لمدة ساعة ونصف قبل أن تمس شعرة واحدة من رأسي. وبعد قرابة ثلاث ساعات خرجت من المحل، وقد تزينت واسترخيت. التكلفة الإجمالية حوالي 5 دولارات.

في اليوم الأخير سرت في اتجاه مختلف عن الفندق الذي كنت أنزل فيه. وشانغهاي ليست مدينة سهلة للتجول فيها بواسطة المركبات أو سيرا على الأقدام. أحيانا يمكنك المشي أسرع من حركة المرور، ولكن المشي ياخذك أيضا بممرات متعرجة ومعلقة تشبه المتاهات. وإذا كنت غير منتبه، يمكنك بسهولة العودة إلى نفس الجانب من غير أن تشعر. مراكز التسوق متوفرة في كل مكان، وقيل أنه يوجد أكثر من 500 منها. وبالفعل لقد تجاوزت شنغهاي هونغ كونغ في عز أيامها. والمساومات لا تزال تجرى حتى في أكثر البوتيكات فخامة. أحد أعضاء مجموعتنا، وهو من أصل صيني ولكنه يعيش الآن في شيكاغو، تمكن من شراء اثنين من المعاطف الرياضية بسعر واحد منها من دون مساومة في محل كبير.

والغذاء هو تجربة أخرى رائعة، وخاصة وجبات الشارع الخفيفة، مثل بيض الحمام، كرات الرز وكعك الارز والأضلاع. وهما معا من الأكلات الرخيصة، واللذيذة والغامضة.

المطاعم بصورة عامة هي خليط من أكلات هانغزو، ونينغبو، وبانغزو. ويفضل الشانغهانيون الأكلات الحلوة والمعتدلة المذاق، ولا يأكلون على النمط السيتشواني الملئ بالتوابل، وهم يتعشون في المطاعم عدة مرات في الأسبوع. ولذا، فإن بعض المطاعم هي بحجم الفنادق، وبعض الفنادق تبدو وكأنها حصون صغيرة. لقد كان عشاؤنا الأخير في مطعم ذي ستة طوابق، وتقدم فيه وجبة موحدة هي البط.

فهل تملك شانغهاي كل شئ هذه الأيام؟ ليس تماما. هناك شيء واحد مفقود، فمن خلال تجربتنا، إن الأمر الذي لا يعلم به حتى الكثير من الصينيين، إلا اننا كثيرا ما نتخذه من المسلمات في هذا الجزء من العالم: كعكات الحظ. ■

(دومينيك ميرل هو المدير الكندي للرابطة الدولية لكتاب السفر)

نصائح السفر

التأشيرات مطلوبة من مواطني أمريكا الشمالية. ويمكنكم الحصول عليها من أقرب سفارة صينية أو قنصلية أو من خلال وكالات السفر.

طرنا على الخطوط الجوية الصينية بدون توقف من نيويورك إلى بكين، فوق القطب الشمالي، على حوالي 13 ساعة طيران، ثم غيرنا إلى طائرة أخرى من نفس الخطوط للرحلة الجوية القصيرة إلى شنغهاي. والقطار المغناطيسي الجديد ألماني الصنع المعروف باسم "ماغليف" يمكن، في الواقع، أن يسير بسرعات تصل إلى 430 كم في الساعة من مطار شنغهاي الدولي إلى وسط المدينة، مسافة تقدّر بحوالي 30 كم، في 8 دقائق، وهو أول تطبيق تجاري لهذه التكنولوجيا في العالم. الأجرة حوالي 8 دولار ذهابا أو إيابا، والقطارات تسير كل 20 دقيقة.